كتابة تاريخ الجزائر بين الواقع والمطلوب عند " ابو القاسم سعد الله"

أ/ نور الدين ممي/ قسم العلوم الانسانية/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي

الملخص:

نهدف من خلال هذه الدراسة المتواضعة إلى تسليط الضوء على جانب مهم متعلق بتاريخنا الوطني والمتمثل في المواصفات و الشروط التي يجب توفرها عند تدوين و كتابة هذا التاريخ ، الأمر الذي شغل بال العديد من الكتاب والمؤرخين ، وجعلهم يخصصون له دراسات وأبحاث قصد وضع أسس سليمة وضوابط دقيقة على ضوئها يكون تدوين التاريخ الوطني بعيدا عن التحريف و التزييف ، ومن بين الذين اهتموا بهذا الموضوع و افردوا له العديد من الدراسات شيخ المؤرخين ابو القاسم سعدالله الذي وظف تجربته الطويلة وخبرته الواسعة في تشخيص حال كتابة تاريخ الجزائر ، وتقديم الحلول وسبل العلاج لترقية هذه الكتابة و جعلها في مستوى عظم ومنجزات هذا التاريخ الطويل الزاخر بالا حدات. وعند وقوفه على واقع الكتابة التاريخية للتاريخ الوطني وجد أن هناك مخططات تضليلية تفنن في إحكامها مؤسسو المدرسة الاستعمارية تهدف إلى تدمير الشخصية الجزائرية و سلخها عن أصولها الحضارية ، خدمة لأغراضهم الاستعمارية يضاف إلى ذلك تشتت الوثائق في شتى أنحاء العالم دون نسيان ما تعرضت له مخطوطات و وثائق تاريخنا الوطني من نهب على يد الفرنسيين .

و من هذا المنطلق و من خلال هذا التشخيص رأى سعد الله انه وحتى يكتب تاريخنا كتابة سليمة لابد من توفر المؤرخ الكفء ، و استعادة و استرداد الوثائق ، واعتماد الدقة في الكتابة بالاعتماد على الدليل القاطع و الحجة الدامغة و بالتقويم لا بالتدوين .

abstract

The aim of this modest study is to highlight an important aspect related to our national history, which is the specifications and conditions that must be met when writing and writing this history, which is filled with many writers and historians, and make them dedicate studies and research to establish sound foundations and precise controls In addition to this, the historian Abu al-Qasim Saadallah, who used his long experience and extensive experience in diagnosing the history of Algeria, presented solutions and remedies to promote them. Writing and making it at the level of bone and achievements of this long history of the most beautiful units. In his view of the historical writing of the national history, he found that there are misleading schemes in which the founders of the colonial school aimed at destroying the Algerian personality and stripping it of its cultural origins for their colonial purposes. In addition, the documents were scattered throughout the world without forgetting the manuscripts and documents Our national history of looting by the French. From this point of view, through this diagnosis, Saadallah saw that, until writing our history in writing, the efficient historian must be available, and the documents must be restored and

retrieved, and the accuracy of the writing should be based on conclusive evidence, argument, evaluation, not codification.

تقديم :

لا يختلف اثنان في العالم المعاصر لما للتاريخ من دور في بناء الشخصية الوطنية ، و ماله من أهمية في حياة الشعوب و الأمم ، و حتى يتحقق هذا الدور، و تستفيد الأمم والشعوب من تاريخها ، وجبت دراسته و تدريسه ، و الاعتناء به، و إعطائه القيمة و المكانة التي يستحقها ، كما يجب أن يدون و يسجل عن طريق الغوص في أعماق الأحداث من أجل فهمها الفهم الصحيح الذي يمكن من توظيف أسبابها و مسارها و نتائجها لتجنب الأخطاء و لإحكام عملية بناء المستقبل .

والأمة الجزائرية هي إحدى هذه الأمم التي يتحتم عليها الاهتمام بتاريخها الحاقل والطويل ، وحفظه من الضياع ، وتحييده عن التزييف و التشويه حتى تكون نظرتها للماضي ، والحاضر و المستقبل لا تجانب السعي الطبيعي للوصول إلى الحقيقة .

و حتى تكون كتابة تاريخ الجزائر سليمة محققة لغايات و أهداف التاريخ أهتم العديد من المؤرخين بهذا الموضوع و أفردوا له العديد من الدراسات و البحوث و على رأسهم شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله الذي أراد وضع أسسًا لكتابة تاريخ الجزائر سليمة انطلاقا من تشخيص واقع ما كتب حول التاريخ الوطني .

و من هذا المنطلق اخترت دراسة هذا الموضوع الموسوم بـ " كتابة تاريخ الجزائر بين الواقع و المطلوب عند سعد الله " و كانت موزعة على ثلاثة عناصر ، بينت في أولها باختصار تعريف التاريخ و أهمية تدونية و دراسته و في ثانيها تطرقت إلى واقع كتابة

تاريخنا الوطني انطلاقا من دراسات شيخ المؤرخين و بعض المعاصرين له ، أما ثالثها ففيها أبرزت مواصفات و شروط الكتابة السليمة في رأي سعد الله

أهمية التاريخ و تدوينه :

لقد كان التاريخ في الماضي : علم تثبيت الحاضر و تبرير أحواله و المحافظة على حسناته و على حماقاته على حد سواء ، و من ثم كان التاريخ من وسائل التخلف و محاربة التقدم و التطور ، و بهذا ذهب بعض الفلاسفة إلى أن الأمة السعيدة هي تلك التي ليس من ورائها تاريخ يشدها إلى الماضي .

أما ابن خلدون فيعرف التاريخ بقوله :« إعلم أن فن التاريخ ، فن عزيز المذهب، جم الفوائد ، شريف الغاية ، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم و الأنبياء في سيرهم ، و الملوك في دولهم و سياساتهم حتى تتم فائدة و الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدنيا و الدين » (1)

كما تقطن إلى النقطة الجدلية المتعلقة بوصف التاريخ و تعيين مكانته حيث أشار إلى أن التاريخ يعني لبعض الناس فنا و لبعضهم علما ، فهو لدى العامة فن و لدى الخاصة علم ، و في ذلك يقول : « إذ هو ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام و الدول و السوابق من القرون الأولى ، و في باطنه نظر و تحقيق و تعليل للكائنات و مبادئها دقيق ، و علم بكيفيات الوقائع و أسبابها عميق فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق و جدير بأن يعد في علومها و وخليق به » (2)

أما الآن و بعد أن آمنت الأمم بضرورة التقدم و التطور، و اعتبرتها من أهم وظائف المفكرين و الحكام فقد أصبح التاريخ : علم دراسة حركة الزمن و رصد اتجاهات التطور، و أصبح من أدوات المجتمع في معركة التطور و الرقي (3)

و تأكد علميا و عالميا ، أن التاريخ هو ذاكرة الشعوب ، و أن دراسته ضرورة لازمة للاستفادة من خبرة الأسلاف و تجاربهم ، و ذلك ليس من خلال المحاكاة و التقليد الأعمى في إطار حفظ الخلف لآثار السلف، و لكن عن طريق الغوص في أعماق الأحداث من أجل فهمها الفهم الصحيح الذي يمكن من توظيف أسبابها و مسارها و نتائجها لتجنب الأخطاء و لأحكام عملية بناء المستقبل الأفضل[4]

وأصبحت الكتابة التاريخية عملية متجددة يمارسها كل جيل بالقدرة العقلية التي وصلها والوثائق المتوفرة لديه و المستجدات الحضارية التي تحيط به [5] و تخضع عملية الكتابة عندئذ لما عليه الجيل من ثقافة و وثائق و إبداعات حضارية فإذا كان الجيل المدون للتاريخ مثقفا جدا فإنتاجه سيكون مرآة لثقافته و قدرته العقلية ،و إذا كان متوسط الثقافة أو حتى قريب من الأمية فإنتاجه الكتابي سيكون مرآة له أيضا[6]

ولم تعد أهمية التاريخ في حياة الشعوب و الأمم الآن موضع شك و لم تعد مكانة علم التاريخ في مناهج المدارس و الجامعات موضع تساؤل و قد مر زمان كان أهله يرددون وراء (كريستوفرد و سن) قوله «ما أسعد أمة ليس وراءها تاريخ » و انقضى عهد كان مربوه و مدرسوه يؤمنون بما ذهب إليه (جان جاك روسو) من « أن الحمقى هم الذين يسمحون لأبنائهم أن يتعلموا التاريخ »، إذن لقد تغير الزمان و أصبحنا نعيش في عصر التغير المستمر و المشاريع في نفس الوقت تغير شامل و جارف [7]

ولقد كان في دراسة التاريخ فائدتان لعصر الثورات التحريرية و التغيير الذي عاشه أهل ذلك الزمان ، فالفائدة الأولى تتمثل في تقرير أصالة فلسفة التطور لأن أهم ما يوضحه علم التاريخ هو أن الإنسانية في تطور دائم و إن كان بطيئا في عصور ما قبل العلم و ما قبل الثورات التي عرفها العالم في جميع الميادين ، و لقد أصبح التغير الآن يسير بخطي سريعة جدا باعتبار أننا نعيش عصر التكنولوجيا و عصر المعلوماتية ، أما

الفائدة الثانية و هي الأهم على ما يبدو فهي أن التاريخ يبين لكل جماعة الإطار الذي يجب أن يحكم تطورها و الاتجاهات التي يجب أن تسير فيها عملية تقدمها ، حتى لا تخرج جماعة عن سياق عملية التطور من جلدها (8)

وفي الوقت الحالي ازدادت أهمية التاريخ و برز ما لوقائعه من ضرورة و ما لمعطياته من دور في توجيه البحوث و تعميق فهم الباحثين و رؤيا هم للظواهر المعاصرة الحاضرة و هذا لا يعفينا من ضرورة التنبيه إلى أن المائدة التاريخية ترتبط بنوعية شخصية مؤرخيها و ما توفر له من جبرة علمية و عملية ، و ما أتيح له من مصادر لجمع الروايات و الشواهد بجانب الأبعاد المنهجية التي استند إليها في تحليله للوثائق و السجلات التاريخية (9)

و كل جيل يحاول أن يعثر على وثائق جديدة أو يحاول أن يفسر الوثائق المتوفرة تفسيرا جديدا ، حسب المعطيات والرؤى التي عليها الجيل الكاتب و هذا معنى التجدد في الكتابة التاريخية ، و عندما توقف المسلمون و الجزائريون بالخصوص على استنطاق الشواهد و الوثائق ، والاستفادة من معطيات الحضارة الإنسانية ، توقفت أو كادت عملية الكتابة التاريخية و أصبح التاريخ عندهم نوعا من الأدبيات الخرافية و الأساطير (10)

واقع كتابة تاريخنا الوطني :

اقتناعا بقول موسى بن سعيد الأندلسي : ما كل ما قبل كما قيل ... فقد باشر الناس الأباطيل وعند قراءة تاريخ الجزائر في مراحله قراءة متأنية فاحصة ، يظهر جليا ما بدا من تخطيط تضليلي تفنن في أحكامه مؤسسو المدرسة الاستعمارية للتاريخ و المشرفون عليه طيلة الليل المظلم الذي داهم الجزائر سنة 1830 ، و ظل إلى يومنا هذا

يحجب عن الحقيقة العارية خاصة بالنسبة للعهد العثماني و الحركة الوطنية و ثورة نوفمبر 1954 (11)

و كانت الكتابات التاريخية الاستعمارية تحمل في طياتها اتجاها تدميريا واضحا للشخصية الجزائرية من جميع أصولها الحضارية و ربطها بالحضارة الغربية (12)

و بذلك تعرضت ذاكرة الشعب الجزائري بفعل الصارم المسلول إلى الكثير من الأباطيل التي نصدق أنها عين الصواب و نبني عليها نظرتنا للماضي و الحاضر والمستقبل و نعتمد عليها في سعينا الطبيعي للوصول إلى الحقيقة (13)

وسلكوا في ذلك طرقا شتى منها تشجيع إعادة كتابة تاريخ الجزائر القديم خدمة لأغراضهم الاستعمارية ، و البحث عن ديانة و لغة للجزائر ، أو قل لكل جزء من القطر في طيات الماضي السخيف ليستبدلوا بهم الدين الإسلامي الصحيح و اللغة العربية الصريحة ، و قد نشطت هذه الأبحاث و الأفكار في بعض أوساط الجزائريين المستعمرين (14)

و فيما يخص القرون الثلاثة التي تمثل واحدا من أمجد عصورنا من حيث التعمير و الإنشاء و تنظيم المدن و تخطيط شوارعها و من حيث الحفاظ على الأمن و الاستقرار و توطيدهما و العناية الفائقة بالعلم و العلماء ، إن الكتابات الاستعمارية قد تمكنت ، بأساليب مختلفة ، من ترسيخها في أذهان الجزائريين أنفسهم ، بما في ذلك الأغلبية الساحقة من ينعتون بالمثقفين و السياسيين على أنها عهد الاحتلال و سيطرة تركية و حكم أجنبي ضاربين عرض الحائط التعليل الحقيقي للحدث التاريخي ومغفلين النظام الهيكلي للدولة الإسلامية و متجاهلين الانجازات العظيمة التي حققتها البلاد في تلك الفترة (15)

و من هنا جاء رد فعل بعض الكتاب الجزائريين من ذوي الثقافة العامة و الاتجاه العربي الإسلامي ، فظهرت كتابات ثلاث حاول أصحابها إثبات عكس ما ذهب إليه مؤرخو الاستعمار و ركزوا على إثبات منبع وجود التاريخ الجزائري في القديم و الحديث و أعادوا منبع البربر إلى أصول عربية كنعانية و في هذا الإطار جاء كتاب مبارك الميلي (تاريخ الجزائر القديم و الحديث) و توفيق المدني (تقويم المنصور) و (كتاب الجزائر) و عبد الرحمان الجيلاني (تاريخ الجزائر العام) ر برغم إيجابيات هذه المؤلفات فإنها لم تكن لترقى إلى مستوى استعمال المنهج العلمي الحديث ، و ذلك أن هذا المنهج لم يبرز إلا بعد الاستقلال[16]

و حيث أن ثورة نوفمبر 1954 تمثل مرحلة حاسمة من تاريخ الجزائر و أن ما حققته من إنجازات كبيرة على جميع المستويات و في سائر مجالات الحياه قد جعلها ترقى إلى مصاف الثورات العظمى التي عرفها العالم الحديث و المعاصر فإن مفاتيح فهمها تعرضت أكثر من غيرها للتزييف و التشويه و نظرا للظروف السياسية التي مرت بها البلاد بعد وقف إطلاق النار فإن القيادة السياسية العليا لم تتمكن من توظيف تجارب الثورات الكبرى التي طبعت مسار تاريخ الإنسانية جمعاء [17]

أما عند التكلم عن وثائق تاريخنا فهي تتوزع في شتى أنحاء العالم و أسباب توزعها كثيرة ، و لعل معرفة مظان تلك الوثائق ، و كيفية استغلالها و بعث الحياة فيها لإثراء تاريخنا و حفظ تراثنا ، أكثر أهمية الآن من معرفة الأسباب التي توزع الوثائق و تشتتها ، و من هذه المظاف مكتبة جميس فورد (J.f.Bell) بجامعة منيسوتا بالولايات المتحدة الأمريكية ، فهي و أمثالها من المكتبات العتيقة بأمريكا تتوفر على جناح خاص بما سمي عندهم بالوثائق و الكتب النادرة التي مضى على طبعها عدة قرون ، و كذلك المذكرات و الرحلات القديمة التي أصبحت في حكم المفقود ، و هم يعطون لها جميعا

عناية خاصة فلا تعار كالكتب ، هذا بالنسبة للوثائق الموجودة في الو.م.آ و في مكاتبها النائية التي توجد بها وثائق متعلقة بتاريخ الجزائر و التي لا يتوقعها المرء[18]

أما الفرنسيون فأخذوا المخطوطات و وثائق تاريخنا و وزعوها على مكتبات بلدياتهم و كذلك مكاتبهم الخاصة ، عندما كانوا مسؤولين عن المكاتب العربية أو مترجمين أو مفتشين للبلديات المختلطة أو معلمين في "المدارس" العربية ، الفرنسية أو مستشرقين يشتغلون بالشؤون الإسلامية [19].

و كان بعض الفرنسيين قد حصل على جوار مرور من الحاكم العام ليجمع المعلومات و الكتب من مكاتب الزوايا في الصحراء و كان الأهالي يخافون فيقدمون ما عندهم عندما تطلب منهم سلطات المكاتب العربية ذلك و لعل بعضهم كان يفعل ذلك تملقا و تقربا أيضا ، و هكذا توفرت للباحثين الفرنسيين العسكريين مصادر أهلية استفادوا منها كثيرا في حكم الشعب الجزائري [20]

و كانوا يحصلون على تلك المصادر بالإغراء تارة و بالقوة تارة أخرى و بالضغط مرة ثالثة و تذكر الكتابات أن "بير بروجر" كان يتبع الجيش حيثما توجه، وعندما تحتل مدينة يأخذ هو المخطوطات العربية من الزوايا و الجوامع و المكتبات الخاصة و يعود بها إلى العاصمة ، كما تذكر المصادر أن الجزائريين كانوا يضطرون إلى بيع مخطوطاتهم و تحفهم أثناء شهر رمضان الذي تكثر فيه المطالب الاقتصادية [21]

يضاف إلى ذلك أن الجزائريين قليلو الكتابة إذا قيسوا بالشعوب الأخرى ، و هذه ملاحظة أبداها ابن خلدون عند حديثه عن أهل المغرب العربي بالمقارنة إلى أهل المشرق و روح الحذر و الحساسية التي تميز الجزائري ، فهو عادة يحب أن يتأكد مما يقول أو يكتب ، و كما هو قيل الكلام كذلك هو قليل الكتابة حذر في أحكامه شديد الحساسية نحو الآخرين ناهيك عن روح المجاملة و المراعاة و الحذر التي تطبع

علاقاتنا ببعضنا و التي نتج عنها العزوف عن تدوين التاريخ و ركود الحركة الأدبية و الحركة الفنية و خمول التفكير السياسي [22]

أما الكتاب الباحثين الفرنسيين الذي كتبوا عن الجزائر فلم يكونوا مؤرخين بالمعنى الاختصاصي الدقيق للكلمة ، فمعظمهم من الهواة و من كتاب الثقافة العامة و الانطباعات و المذكرات و التقارير الرسمية ، و قد كانوا في الفترة الأولى كانوا ضباط عسكريين يجمعون بحماس شديد كل ما تقع عليه أيديهم من مصادر مكتوبة أو شفوية و من آثار قديمة و حديثة ، و هدفهم من ذلك الوصول إلى فهم السكان الذين يحكمونهم و ليس هدفا علميا [23].

أما المؤرخين الجزائريين فإن بعضهم قد كتبوا عن الحركة الوطنية من وجهة نظر أحزابهم أو الهيئات التي كانوا منتمين إليها قبل الثورة ، و فيما يخص الثورة فإن مؤرخيها يستأثرون أيضا بدورهم فيها و حدود مشاركتهم و مسؤوليتهم ، وقد تغلب على بعضهم الروح الحزبية و الجهوية ، و ما إذا كانوا من أصحاب الداخل أو الخارج و ما إذا كانوا عسكريين أو مدنيين بل ما إذا كانوا من أصحاب المدن أو أهل الريف [24]

يجب و عند الحديث عن تاريخ الثورة يرى "سعد الله " بأنها قزمت حتى كدنا نبحث عنها بالمجهر ، و لطخت بمساحيق غريبة عنها حتى أصبح اسمها الآن عند الجيل الجديد مرتبط بالعجز السياسي و الإستثراء الفاحش لفئة معينة و القفز في الهواء في مشاريع التنمية ، كما تم تحجيمها خارجيا بحيث أحيطت بسياج تسمى حسن الجوار بالرغم من عظمة هذا الحادث ، و كم كانت تحمل آمالا عريضة و كم عرفت من شهداء و أبطال ، و كم افتكت من احترام العدو و الصديق في العالم ، و كم كانت قدوة لعدد من حركات التحرير [25]

أسس كتابة تاريخ الجزائر:

قال حسان بن يزيد : «لم أستعن على دفع الكادنين بشيء مثل التاريخ» وأوصى نابليون بونابر ت ولده قائلا:«ليكثر ولدي من قراءة التاريخ و ليتأمله ، فهذه هي وحدها هي الفلسفة الصحيحة ».

ويعتبر الفرنسيون من بين شعوب العالم الأكثر التحاما ومعانقة لتاريخها الوطني والقومي ، وترويجا له في برامجها التعليمية ، وفي برامج التعليم الخاصة بالدول التي تدور في فلك فرنسا إحياء لماضيها ،وذودا عن مساهمتها الحضارية وعن لغتها ،أما مواقفهم الرسمية والشعبية فلا تحيد قيد انمله للدفاع عن تاريخهم مهما تباينت مشاربهم ،وتعارضت رؤاهم [26]

ونحن في أمس الحاجة إلى تأمين الموضوعية وإنصاف النفس وإنصاف التاريخ بعد أن غمط تاريخنا واستبيح ليغدو على أيدي أصحاب المدرسة الكولوينالية فضاء مفتوحا على الانحرافات والتشويهات والتضليل والتزييف ،ولم ينج من هذه الممارسات غير العلمية وغير الأخلاقية حتى تاريخنا القديم الذي أعاد قراءته المؤرخون الكولونياليون على أمزجتهم وأهوائهم لما يخدم مصالحهم الاستعمارية لا لما يخدم الموضوعية التاريخية والحقيقة الإنسانية [27] و يتم ذلك من خلال مايلي:

1- توفر المؤرخ الكفء واعتماد الكتابة الدقيقة :

حتى يتم سد الذرائع أمام الأجانب و أمام المتطفلين و حتى تتم إعادة كتابة تاريخ الجزائر بصفة عامة و تاريخ الثورة على الخصوص رأى شيخ المواطنين أبو القاسم سعد الله أن ذلك لن يتم دون توفر المؤرخ الكفء الحر في التعبير و النشر لأن الوصول إلى الحقيقة لن يتم إذا كان على المؤرخ أن يداري أفكاره و آراءه و أن يشوه الأحداث لكي

يكون مقبولا ، كما أن التخلص من العقد و الحساسيات هو الكفيل بتحبيب التاريخ و الكتابة فيه [28]

ذلك المؤرخ الذي لا يكتب تحت الأضواء الكاشفة ، و لا وسط ضجيج الملتقيات و صخب الجماهير بل عليه أن يتابع كل ذلك ، و يرصد الأحداث و يتمثلها ، و أن يسجل في وعيه و على بطاقاته و خطوات التيار العام ، ثم يتنحى ناحية بعيدة عن الأضواء و الصخب و الضجيج و دارسا متأملا مقدما بعض الأحداث على أخرى محكما عقله و ضميره و بعيدا عن المؤثرات الخارجية مهما كان نوعها ، ثم يصدر حكمه الذي يعتقد أنه الحق مهما خالف ذلك الرأي العام أو ما اتفق عليه الناس أو ما يتوقعه هذا المسؤول أو ذاك .

فشبه الشيخ المؤرخ الذي يقرأ و يسمع و يعيش مع جميع الأطراف المشاركة في الحادثة ثم يختلي مع نفسه ليحكم عقله و ضميره قبل إصدار حكمه بالقاضي الذي يستمع إلى جميع أطراف القضية ثم يختلي للتشاور مع مساعديه قبل إصدار حكمه [29]

لأن الخائض في علم التاريخ كما يقول المؤرخ محمد العربي الزبيري مطالب أكثر من غيره بتقديم الدليل القاطع على صحة ما يورده من معلومات و الاتيان بالحجة الدامغة لتبرير ما يطرحه من أفكار و آراء و ما ينشره من قضايا أساسية حول موضوعات قد تتعدد فيها الرويات و تتكاثر الأقلام لقرع أبوابها بحثا عن الحقيقة أو عملا عن تغييبها لسبب من الأسباب [30]

كما أن العمل الأساسي للمؤرخ ليس التدوين ، إنما هو التقويم ذلك أنه إذا لم يجر تقويمه فكيف له أن يعرف قيمة الأشياء التي تستحق التدوين [31]

لأن كثيرا ما وقع للمؤرخين و المفسرين و أئمة النقل من المغالط في الحكايات و الوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا و لم يعرضوها على أصولها و لا قاسوها بأشباهها و لا سبروها بمعيار الحكمة و الوقوف على طبائع الكائنات و تحكيم النظر و البصيرة في الأخبار ، فضلوا على الحق ، و تاهوا في بيداء الوهم و الغلط (32)

و هو ما يؤكد هـ مؤسس علم التاريخ و موجد علم الاجتماع ابن خلدون بالقول :" إن الكتابة في التاريخ تحتاج إلى مآخذ متعددة و معارف متنوعة و حسن نظر و تثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق و ينكبان به عن المزلات و المغالط ، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل و لم تحكم أصول العادة و قواعد السياسة و طبيعة العمران و الأحوال في الاجتماع الإنساني ، و لا قيس الغائب منها بالشاهد و الحاضر بالذاهب فربما لم يأمن فيها من العثور و مزله القدم و الحيد عن جادة الصدق" (33)

تجديد تاريخنا الوطني و ضرورة تدريسه :

يرى الشيخ أبو القاسم سعد الله ضرورة تجديد كتابة تاريخنا الوطني و أن ذلك لا يجب أن يكون عقدة عندنا فمعظم الشعوب تحاول استعادة كتابة تاريخها بناء على المعطيات الحضارية و الظرفية و الإستراتيجية ، و إعادة كتابة التاريخ تعطى الفرصة لتوظيف عناصر كانت غائبة في مراحل سابقة أو كانت محرمة أو ضد مصلحة الوطن (34)

كما يؤكد على أن التغني بأبطال المقاومة خلال القرن 19م و بشهداء ثورة نوفمبر لا يكفي و إنما المطلوب هو اكتشاف أنفسنا تاريخيا و حضاريا لأن تاريخنا لا يبدأ من سنة 1954 أو 1830 (35)

وهو بذلك يوجه الدعوة إلى الباحثين الشباب بأن لا يكتفوا في أبحاثهم بالمضوغ من الكلام و المعاد من الأحكام و أن يتجهوا إلى الوثائق التي تمدهم بمواد خام ، و تعطيهم الوسيلة إلى الإبداع و لذة الكشف عن المجهول و بذلك يخدمون أنفسهم بالتفرد بالرأي و الاستقلال في الحكم ، و يخدمون بلادهم بالجديد في البحث التاريخي (36)

كما يطلب من جميع الجزائريين القادرين على الكتابة إلى تسجيل أفكارهم و آرائهم و نتائج دراستهم كل في ميدانه (37)

و الكتابة عن التاريخ الوطني في نظره ليست مهمة المؤرخ وحده بل تستلزم مساهمة جميع العناصر المنتجة ثقافيا كمذكرات رجال الدولة و المناضلين القدماء في الحركة الوطنية و العسكريين و الصحافيين و الكتاب و أساتذة العلوم الاقتصادية و السياسية و الاجتماعية و أضرابهم ، و ذلك أن أعمال هؤلاء جميعا ستصبح ذات يوم مادة تاريخية هامة و بذلك تكون الكتابة التاريخية قدر مشترك بين جميع المواطنين (38)

و عند الحديث عن تدريس التاريخ يؤكد شيخ المؤرخين على أهمية ذلك و أن تدريس التاريخ الوطني في أقسام التاريخ بالجامعات غير كافي و برامج التعليم المتوسط و الثانوي ضعيفة في حين أن دول عظمى في العالم يتابع الطلبة دراسة التاريخ الوطني في جميع قطاعات التعليم العالي كمادة إجبارية مهما كان تخصص الطالب (39)

فتدريس التاريخ للأجيال من خلال إعادة الحركة إلى الوقائع و بشرحها و تحليلها يمكنها من تمثل هذه الأحداث من جديد بكل زخمها و حركتيها و من ثمة أخذ شحنة جديدة من أجل إعادة أفعال و أحداث تتماثل أو تتفاوت من حيث العمق و الهدف (40)

3- أحادية المنهج و استرداد الوثائق :

المنهج التاريخي هو الذي يستخدمه الباحثون الذين تسوقهم معرفة الأحوال و الأحداث ، و يستخدم للحصول على أنواع من المعرفة عن طريق الماضي بقصد دراسة و تحليل بعض المشكلات الإنسانية و العمليات الاجتماعية الحاضرة(41)

وعندما سُئل أبو القاسم سعد الله عن منهج كتابة التاريخ أجاب بأن هناك منهجا واحدا لكتابة التاريخ و هو المنهج العلمي و لكن هناك بعض الاعتبارات التي قد تؤثر على استعمال هذا المنهج فالتاريخ باعتباره من أهم العلوم الاجتماعية و الإنسانية خضع لتفاسير عديدة بحسب الأدوات التي توفرت للمؤرخ في الحقبة التي عاشها أو يعيشها، و قد تأثر التاريخ بالعلوم الاجتماعية الأخرى ، و كذلك التيارات الأدبية في بعض الحقب ، فكان هناك المؤرخ الديني ، و المؤرخ الأدبي ، و المؤرخ السياسي ، و المؤرخ الاقتصادي ، و المؤرخ الاجتماعي ، وهلم جرا ، بل يوجد في بعض الحقب المؤرخ الاستعماري و المؤرخ الوطني أو القومي لكن (التاريخ) في حقيقة الأمر واحد .

أما الذي اختلف فهو المؤرخ أو الإنسان الذي يتأثر بعوامل العصر الذي يعيشه من دين ، و قومية ، و حضارة ، و نظم حكم ...إلخ .

و ما دام المؤرخ لا يستطيع أن يكون علميا (عالما) بجميع العلوم الاجتماعية و الإنسانية على حد سواء ، فإنه لا محالة سيتأثر بالعلم الذي تغلب عليه (42)

أما التاريخ الحق في رأي سعد الله هو الذي تكتبه الأجيال اللاحقة و ليس ذلك الذي يكتبه بعض المعاصرين المتأثرين بالعلاقات الشخصية و الأيديولوجية و الحزبية (43)

أما فيما يتعلق الوثائق النادرة و المتعلقة بجوانب من تاريخنا الموزعة بين متاحف و مكاتب العديد من البلدان و خاصة فرنسا التي تتمسك بوثائق هامة ، متذرعة بأنها تثير بعض الحساسيات ، يرى سعد الله أن من حق الجزائر استرداد كل الوثائق سواء ما يثير الحساسية أو ما لا يثيرها يضاف إلي ذلك التحف و الأسلحة و مختلف الآثار التاريخية (44)

لأنها تمثل المفاتيح الصحيحة التي تسمح للباحث بدخول مجالات المعرفة من أبوابها التي من دونها يبقى ، دائما و مهما كانت الجهود المبذولة ، بعيدا كل البعد من الحقيقة التي لابد منها و التي يجب أن ترقى إلى مستوى المفجر لحركة الحياة اليومية (45)

خاتمة :

بعد انجاز هذه الدراسة ، توصلت الى الاستنتاجات الاتية :

– لم يفرد ابو القاسم سعد الله كتبا متخصصة تتحدث عن شروط الكتابة التاريخية ، إنما نجدها مبثوثة في ثنايا كتبه .

– سعي الشيخ الى لفت انتباه المؤرخين الى ضرورة مراعاة الشروط المنهجية التي وضعها لكتابة تاريخ الجزائر كتابة سليمة .

– بروز وطنية الشيخ عند تعرضه لما كتبه الفرنسيون عن التاريخ الوطني .

– وضع مواصفات دقيقة للمؤرخ الكفء التي يرى أنها الكفيلة بتدوين التاريخ وفق أسس صحيحة .

– عدم رضاه عن واقع كتابة تاريخنا الوطني التي يراها حسب نظره لا ترقى مستوى الى قدم وعظمة هذا التاريخ .

الهوامش:

1– السايح فيلالي : التاريخ في نظر الشعوب و الأمم ، ، **جمعية التاريخ و التراث الأثري لمنطقة الأوراس** ، العدد 8 ، 1985 ،ص105

2 – عمار يوحوش ، محمد محمود الذيبيات : **مناهج البحث العلمي وطرق إعداد البحوث**،ط4، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 2007 ، ص 105

3 – السايح فيلالي : المرجع السابق ، ص 82

4 – محمد العربي الزبيري : قراءة متأنية في وثيقة وادي الصومام،الكاتب الجزائري ، عدد خاص ، اتحاد الكتاب الجزائريين ، 2005 ،ص 5

5 – أبو القاسم سعد الله : **أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر** ، ج4، طبعة خاصة ، دار البصائر الجزائر، 2007، ص 7

6 – المرجع نفسه ، ص 87

7 – السايح فيلالي ، المرجع السابق ، ص 81

8 – المرجع نفسه ، ص 83

9 – عمار يوحوش ، محمد محمود الذيبيات : المرجع السابق ، ص 105

10 – أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق ، ص 07

11 – د. محمد العربي الزبيدي : **تاريخ الجزائر المعاصر دراسة** ،ج1، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007،ص 06

12 – د. يوسف مناصرية : المدرسة التاريخية الجزائرية " **التراث**" العدد8، جمعية التاريخ و التراث الأثري لمنطقة الأوراس ، نوفمبر 1985، ص 105

13 – د. محمد العربي الزبيدي : قراءة متأنية في وثيقة وادي الصومام المقال السابق، ص 06

14 – د. يوسف مناصرية : المرجع السابق ، ص 105

15 – د. محمد العربي الزبيدي: تاريخ الجزائر المعاصر، المرجع السابق ،ص 06

16 – د. يوسف مناصرية : المرجع السابق ، ص 105

17 – د. محمد العربي الزبيدي : قراءة متأنية في وثيقة وادي الصومام المقال السابق، ص 06
18 – أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق ، ج3، ص 173
19 – المرجع السابق ج2، ص 239
20 – المرجع السابق ج1، ص 34
21 – المرجع السابق ج1، ص 34
22 – المرجع السابق ج1، ص 44
23 – المرجع السابق ج1، ص 34
24 – المرجع السابق ج2، ص 238
25 – المرجع السابق ج4، ص 09
26 – فرنسواز ميستو" تعليم تاريخ الاسلام ... لماذا؟ و كيف؟ مجلة كراسات تربوية" عدد 248، نوفمبر 1986، ترجمة لمباركية نوار مجلة التراث ، العدد 08 ، نوفمبر 1955، ص 117
27 – محمد *الشريف عباس ،كتابة تاريخنا الوطني معركة حضارية*، **المصادر** ، العدد الخامس،المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954 ،2001 ، ص08
28 – أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق ، ج2، ص 240
29 – المرجع نفسه الصفحة نفسها
30 – أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق ، ج4، ص 10
31 – المرجع نفسه ،ج2، ص 241
32 – المرجع نفسه ، ج3، ص 85
33 – المرجع نفسه ،ج2، ص 241
34 – المرجع نفسه الصفحة نفسها
35 – أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق ، ج4، ص 10
36 – المرجع نفسه ، ج2، ص 241
37 – المرجع نفسه ،ج3، ص 85
38 – المرجع نفسه ، ج2، ص 241

39 – أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق ، ج2، ص 241

40 – السايح فيلالي،المرجع السابق، ص84

41 – عمار بحوش ، محمد محمود الذنبيات ، المرجع السابق، ص 103

42 – أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق ، ج2، ص 237

43 – المرجع نفسه ، ص 24

44 – المرجع نفسه ، ص 240

45– محمد العربي الزبيري : قراءة متأنية في وثيقة وادي الصومام المقال السابق، ص 01